الثورة الجمعة 24 ذو الحجة 1433هـ 9 نوفمبر 2012م العدد (17523)

واجبة على المسلم حتى ولو جفاه أقرباؤه

صلة الرحم .. بركة في الرزق والعمر

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم في العديد من التوجيهات النبوية الكريمة على حث المسلمين على صلة الرحم، ودفعهم إلى هذه الفضيلة لينال من يتحلى بها العطاء الإلهي الوافر، حيث قال في الحديث الصحيح: »من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه« أي: من أراد أن يوسع الله له في رزقه، وأن يبارك له في عمره فعليه أن يصل رحمه . . وبسطة الرزق كما يقول شراح الحديث قد تكون كثرة وقد تكون بركة، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب . . وعطاء الله الدنيا لبعض الناس كثرة ليس دليلاً على تكريم من الله أو محبة منه جل جلاله، وإنما مدار التكريم والمحبة على بركة الرزق ونمائه وحسن الانتفاع به .

صلة الرحم واجبة، وقطعها من الذنوب الكبيرة، فقد ورد الوعيد بشأن قاطعها في أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم: »إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاقرأوا إن شئتم »فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم« والرحم كما يقول د .أحمد عمر هاشم أستاذ السنة النبوية والرئيس الأسبق لجامعة الأزهر ثلاثة أنواع:

رحم عامة وهي رحم الدين
رحم خاصة وهي الأقارب
رحم القريب غير المسلم

فأما الرحم العامة: فتجب مواصلتها بالتواد والتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما إلى ذلك من الحقوق الواجبة والمندوبة .

وأما الرحم الخاصة: وهي التي تعنيها التوجيهات والوصايا النبوية في الأغلب فتكون صلتها بزيادة النفقة على الأقارب، وتفقد أحوالهم، والتسامح معهم، وقضاء حوائجهم، وكل ما فيه نفع ديني أو دنيوي يعود عليها .

ولصلة الرحم وجوه عديدة، منها ما يكون بالمال، ومنها ما يكون بتفقد أحوالهم، وقضاء مصالحهم، وهي ليست خاصة بمن يصلون المودة بل إن المسلم مطالب بأن يصل جميع رحمه، سواء أحسنوا إليه أم أساؤوا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: »ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها« .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عنهم ويجهلون علي؟ فقال: »ولئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل . ولا يزول معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك«

والمعنى الشامل لوجوه الصلة: هو إيصال ما يمكن من الخير ودفع ما يمكن من الشر ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها: واجب، ومنها: مستحب، فمن وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً، ولو قصر عما يقدر وينبغي له لا يسمى واصلاً .

ثواب جزيل

● لكن: كيف تحقق صلة الرحم البركة في العمر والرزق وتقرب صاحبها من الجنة كما جاء في أحد التوجيهات النبوية؟

تقول الداعية والفقيهة الدكتورة عبلة الكحلاوي أستاذة الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر: التوجيهات النبوية الكريمة تخبرنا أن صلة الرحم تجلب لفاعلها مكاسب عديدة منها ما يتعلق بالأرزاق ومنها ما يتعلق بالأجل والشاهد فيها أن صلة الرحم ضمان للبركة في الرزق كما وكيفاً . . فالرزق لا يقتصر على المال، وإنما الصحة رزق، والولد الصالح رزق، والسمعة الطيبة رزق، والعلم النافع رزق، والاستقامة رزق، والهداية رزق، والعافية رزق .

أما الزيادة في العمر فلا تعني طول العمر، وإنما تعني بركته، وكم من حي يطوي الأعوام، ويبلغ الهرم وله مع كل غد نقطة سوداء في صحيفته .

فالمقصود البركة في الوقت لأداء الطاعات، وعمارة الوقت بما ينفعه في آخرته من عمل مثمر لخدمة الجماعة، وإحسان العمل والاشتغال بطلب الرزق لرعاية من يعول .

وخلاصة القول: إن صلة الأرحام والحرص عليها ليس لها جزاء إلا التوفيق في العمل فتبارك الأعمال فيحيا أعوامه القليلة في الزمن أعواماً كثيرة في العمل فكأنه عُمِّر عُمْر نوح في طاعة الله كمن يؤدي الصلاة في مكة المكرمة .

ولا ينقطع عمله بموته فمن جملة التوفيق أن يجعل له ولداً صالحاً يداوم الدعاء له، والصدقة وطلب الرحمة فهذه زيادة في العبودية، يوصل بها العمل وأيضاً يوفقه للعلم الخالص الذي ينتفع به الناس على طول الزمان فلا تنقطع سيرته العطرة التي تترك أثرها في الناس، ولنتدبر أحوال فقهائنا الكرام الذين أثروا المكتبة الإسلامية وسنبقى أبداً نستزيد من خيرها نحن ومن سيأتي بعدنا، ومثل ذلك الوصل المبارك ما يقدمه واصل الأرحام من صدقات لها سمة النماء كبناء المسجد أو دار استشفاء أو حفر بئر، أو دور لرعاية الصغار وما ذلك إلا بتوفيق وهداية من الله .

خصال من الخير

ومن وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً لمن سأله عما يقربه إلى الجنة فقال صلى الله عليه وسلم: »تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم . وفي رواية: وتصل ذا رحمك فلما أدبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة« .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ما روي عن أبي ذر الغفاري قال: »أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير: أوصاني ألا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أنظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني بأن أصل رحمي وإن أدبرت، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأوصاني أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة« .

وإذا ما اجتمع قوم على رعاية منهج الله بالتطبيق، فلهم البشرى بالرفعة والعلو والريادة ووفرة الأرزاق فصلات الأرحام في المجتمع الواحد أشبه بالشبكات الدموية في الجسد الإنساني فالشرايين والأوردة وحتى الشعيرات الدقيقة إن تواصلت بلا عطب أو تلف صح الجسد وارتوت العافية وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: »إن الله ليعمر بالقوم الديار، ويثمر لهم الأموال، وما نظر إليهم من خلقهم بغضاً لهم قيل وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: بصلتهم أرحامهم« .

ونظراً لما لصلة الرحم من أثر في العلاقات والصلات بين الناس فقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قطع أرحامنا والإساءة لذوي القربى وقال في الحديث الصحيح: »الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله« .

وقد أكد العلماء أن قطع الرحم من كبائر الإثم وأقبح المنكرات ويدل على قسوة القلب وجمود العاطفة، ومن تلوث بها لا يرجى منه خير .

وعلمنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن صلة الرحم التي تحقق للمسلم رضا الله وعفوه وعظيم عطائه وثوابه لابد أن تكون عن رغبة صادقة وإيثار لا ينقطع . ولذلك لا ينبغي أن يحتج إنسان ويبرر قسوته وجفوته ويقول: إني أصل رحمي وهم يقطعونني، وأحسن إليهم وهم يسيئون إلي، وأحلم عليهم وهم يجهلون علي، فقد شكا أحد الصحابة ذلك للنبي، فلم يأمر بمقابلة السيئة بالسيئة، ولكن ثبت قلبه وشد أزره وأخبره أن الله معه عليهم، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن مقام الإحسان فوق مقام العدل، وأن المسلم ينبغي له أن يطلب الكمال في كل أحواله فقال: »ليس الواصل بالمكافئ أي الذي يقابل الإحسان بالإحسان ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها« .

من عصى الله فيك فأطع الله فيه

الدنيا هي دار التكليف، والآخرة هي دار التشريف، والخيرُ كلُّ الخير في اتباع من سلف، والشرُّ كلُّ الشر في ابتداع من خلف، ومن أحبَّ الخير سلك طريق الأخيار، ومن عرف الشر اجتنب سبيل الأشرار، والحسنةُ تمحو السَّيئة، والصدقةُ تطفئُ الخطيئة، ولنَتَّقِ النارَ ولو بشِقِّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة، فمن لم يجد فليُمْسِكْ عليه لسانه، وطوبى لمن كان الخير على يديه، والويلُ لمن كان الشر على يديه، ومن الناس من هم مفاتيحُ للخير مغاليقُ للشر، ومن الناس- عياذاً بالله- من هم مفاتيح للشر مغاليق للخير، وأهلُ المعروف في الدنيا هم أهلُ المعروف في الآخرة، وصنائعُ المعروف تَقي مصارعَ السوء، والسعيدُ من وُعِظَ بغيره، والشقيُّ من وُعِظَ بغيره، والأشقى منه من لم يَتَّعِظْ لا بغيره ولا بنفسه، ومن خرج على الجماعة فخروجُه مذموم.

الشيخ ياسين الأسطل

فالجماعة الجماعة، وعلينا فيها بحسن السمع والطاعة، والصواب لازم للأمة إذا اجتمعت فاجتماعُها معصوم، وسائرُ البشر ليسوا ملائكةً لا يخطئون، ولا أنبياءَ بالوحي من الله معصومون، بل إننا نعمل ولكن بين الخطأ والصواب، ومن حكم فاجتهد فأخطأ فله أجرٌ، وله أجران من حكمَ فأصاب، ومن عمل الحسنة فله الثواب، ومن ارتكب الخطيئةَ فعليه العقاب، إلا من أقر وتاب، وخضع لربه وأناب، ونحن المسلمين يوجد بيننا من أخطا وكذلك يوجدُ من أصاب، ولكن من أصاب اليوم قد يخطئُ غداً، ومن أخطأ اليومَ قد يصيبُ غداً، والدين المعاملة، وقد بعثَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم ليُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق.

أيها الناسُ.. يا عباد الله: ولا يُقابَلُ الخطأُ بالخطأ ولكن يقابلُ الخطأُ بالصواب، ومن عصى الله فيك فأطع الله فيه، بذلك جاءت السنةُ ونطق الكتاب، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٣٣» وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ «٣٤» وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٣٥»﴾.

قال الإمام القرطبي رحمه الله في [الجامع لأحكام القرآن]: «والمعنى: أي كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن: هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه- ثم قال – قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: «لا» صلة أي «وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ» وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسولُ اللهِ فعلَهُمُ ×× والطيبان أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمرُ، أي لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشرك. قال ابن عباس: الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك. وقيل: الحسنة الطاعة، والسيئة الشرك. وهو الأول بعينه. وقيل: الحسنة المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم، والسيئة الفحش. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الحسنة حب آل الرسول، والسيئة بغضهم. قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ نسخت بآية السيف، وبقي المستحب من ذلك: حسن العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك. وعنه أيضا: هو الرجل يسب الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك.

وكذلك يروى في الأثر: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال ذلك لرجل نال منه. وقال مجاهد: «بالتي هِيَ أَحْسَنُ» يعني السلام إذا لقي من يعاديه، وقاله عطاء. وقول ثالث ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في الأحكام وهو المصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يذهب الغل». ولم ير مالك المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان: قد صافح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعفرا حين قدم من أرض الحبشة، فقال له مالك: ذلك خاص. فقال له سفيان: ما خص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخصنا، وما عمه يعمنا.. إلخ» اهـ. وهذا مثل قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام في سورة المؤمنون: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ «٩٦»﴾.

وقد امتثل الرسول صلى الله عليه وسلم فكان كما جاءت صفته وصفة أصحابه في الكتب السابقة على القرآن، فقد روى الإمام الدارمي في سننه قال: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ قَالَ كَعْبٌ: نَجِدُ مَكْتُوبًا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ –صلَّى الله عليه وسلم– لَا فَظٌّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَخَّابٌ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَأُمَّتُهُ الْحَمَّادُونَ، يُكَبِّرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ نَجْدٍ، وَيَحْمَدُونَهُ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ، يَتَأَزَّرُونَ عَلَى أَنْصَافِهِمْ، وَيَتَوَضَّئُونَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ، مُنَادِيهِمْ يُنَادِي فِي جَوِّ السَّمَاءِ، صُفُوفُهُمْ فِي الْقِتَالِ وَصُفُوفُهُمْ فِي الصَّلَاةِ سَوَاءٌ، لَهُمْ بِاللَّيْلِ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ بِطَيْبَةَ، وَمُلْكُهُ بِالشَّامِ» اهـ.

فيا عبد الله يا أخا الإسلام: من عصى الله فيك فأطع الله فيه، فلا تسبنّ من سبّك، ولا تَشتمَنّ من شتمك، فإن الملائكة تدافع وتدفع عنك، وقد روى الطبراني في معجمه الأوسط قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن يَحْيَى، ثَنَا الْقَاسِمُ بن دِينَار، ثَنَا حُسَيْنُ بن عَلِيٍّ الْجُعْفِيُّ، ثَنَا سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ، ثَنَا ابْنُ جُدْعَانَ، عَنْ سَعِيد بن الْمُسَيِّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلا كَانَ يَسُبُّ أَبَا بَكْر عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ سَاكِتٌ، فَلَمَّا سَكَتَ الرَّجُلُ رَدَّ أَبُو بَكْر كَلِمَةً، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَسُبُّنِي وَأَنْتَ قَاعِدٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ، أَوِ انْتَصَرْتُ، أَوْ نَحْوَ هَذَا، قُمْتَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: كَذَبْتَ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجْلِسَ».

ولتُحْسن يا أخا الإيمان إلى من أساء إليك، ومن أدبر عنك فأقبل إليه، ومن حرمك فأعطه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعف عنه، وفي الحديث الذي رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد واللفظ للبخاري في الصحيح قال : بَاب لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ وَالْحَسَنِ بْنِ عَمْرٍو وَفِطْرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ سُفْيَانُ لَمْ يَرْفَعْهُ الْأَعْمَشُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَفَعَهُ حَسَنٌ وَفِطْرٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا» اهـ.

عباد الله: هذا هو خُلُقُ المسلمين، وهذه هي صفات المؤمنين، فلنتخلق ولنتصف، فمن علم لزمه العمل، ومن عمل خالصاً ذاق حلاوة الإيمان، اللهم ارزقنا حلاوة الطاعة، وتمام الإحسان، يا ربنا يا رحيم يا رحمن.

عباد الله: ولتعلم أيها المسلم أن هذه من أبواب المغفرة، فقد أوذي أبو بكر رضي الله عنه، آذاه مسطح بن أثاثة رضي الله عنه، وهو ابن خالته، وكان من أهل بدر، وكان محتاجا، وكان ينفق عليه أبو بكر فحلف أبو بكر أنه لن ينفق عليه، فنزل قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٢٢»﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: «.. وكان الصديق، رضي الله عنه، معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب –يا ربنا –أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته» اهـ.